

اللسان بين الأحادية والثنائية والتعدد

دراسة سوسiolسانية

مجاهد ميمون

كلية الآداب واللغات قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة سعيدة

توطئة :

لقد اعتبرت أحادية اللسان في بعض المجتمعات إلى وقت قريب الحالة الطبيعية التي يجب أن تسود داخلها. أما التعدد اللساني فنظر إليه دوماً على أنه حالة اختلال. الأمر الذي خلق نوعاً ما حالات من الاحتقان في هذه المجتمعات، بالنظر إلى أن بعض المجموعات اللغوية رأت في اعتماد الدول أو المجتمعات التي كانت تعيش فيها لساناً واحداً، ضرباً من التهميش لها ومساساً بهويتها، والأكثر من ذلك عدم الاعتراف بوجودها أصلاً. والمجتمعات الكثيرة التي لم تعالج هذه الظاهرة بطرق تضمن التعايش بين المجموعات داخل المجتمع الواحد، رأت وحدتها وتماسكها الاجتماعي مهدداً بالانحيار إن لم ينهار بعضها.

انطلاقاً من ذلك صارت قضيتنا الأحادية والتعدد اللساني قضيتين مفصليتين في الدراسات المعاصرة ولاسيما في مجال السوسiolسانيات، وأصبح الاهتمام بهما كثيراً، خاصة في مجال وضع السياسات اللغوية والتخطيط اللساني وقد سبق الإشارة إلى ذلك، وأصبح الباحثون يولونهما اهتماماً كبيراً، انطلاقاً من التحولات الاجتماعية والسياسية والثقافية والفكرية التي بدأ العالم يعيشها بدءاً من بداية القرن الماضي وحتى الآن.

والواقع أن الخوض في هذين القضيتين، أصبح أكثر من ضروري في وقتنا الحالي، لأن أنشطة عديدة صارت تهم بذلك، خاصة نشاط تعليمية اللغات. إذ أصبح ملحاً أكثر من أي وقت مضى ضرورة التفكير الجيد في اللسان التي يجب اختياره لتعليمه، وبحث غايات ذلك جيداً. حتى أن الأمر تجاوز بعض الأحيان قضية الهوية، ليتحول إلى قضية اقتصادية وسياسية محضة.

1الأحادية بين المفهوم والواقع: unilinguisme ,monolinguisme

الأحادية اللسانية والأحادية اللغوية والتفرد اللساني أو التفرد اللغوي، كلها مصطلحات تستعمل حين وصف مجموعة أو مجتمع لا يستعمل إلا لساناً واحداً، ولا يتصل أفرادها ولا يتعاملون إلا بهذا اللسان، فهو الوطني وهو الرسمي وهو وحده المحسد لهوية هذا المجتمع ووجوده وتفرده.

إننا إذا تتبعنا الإحصائيات الموثوق بها والتي دأبت على البحث في عدد الألسن وجغرافيتها، نجد أنها قلما تتفق على عدد واحد، إلا أن العدد الذي يتردد بكثرة هو خمسة آلاف لساناً. وبعملية حسابية بسيطة سيتضح لنا أن أغلب الدول في العلم دول متعددة

الألسن، أو ثنائية اللسان في أقل تقدير لها، وذلك إذا انطلقنا من أن عدد الدول يزيد على المائتي دولة، ولو أن هذا العدد، يخضع نفسه لما يحدث من تغيرات في العالم، فدول تظهر وأخرى تمحى¹ وهكذا. ومنه نجد أن متوسط كل دولة هو خمسة وعشرون لسانا " وإن كان هذا رقما تقريبا لأنه في حين توجد دول يتحدث سكانها مائتي لغة مثل جمهورية الكونغو الديمقراطية.. والهند فهناك دول أخرى تقترب من كونها أحادية اللغة، مثل إيسلندا ورواندا"²

إن قراءة بسيطة فيما سبق تجعلنا نستنتج أن الدول الأحادية اللسان قليلة جدا في العالم، و أن ظاهرة التعدد اللساني هي الطاغية، لدرجة أن البعض يرى أنها الظاهرة الأصل، ولو أن البعض الآخر له رأي مخالف³ لذلك تماما.

إن الدول الأحادية اللسان لا تمثل إلا نسبة ضئيلة مقارنة مع الدول المتعددة اللسان. وقد أحصى المختصون حوالي 29 دولة في العالم كله أحادية اللسان. لكنها دول تختلف في وضعها السكاني والاقتصادي. ومن الدول الكبرى التي تعد أحادية الكوريتان وكوبا والبنغلاديش والبرتغال والبراغواي والأوروغواي ولبنان. وهناك دول أخرى لكنها قليلة العدد الأمر الذي يجعل الحالة عادية.

إنه وعلى العكس مما يظن البعض فإن دولاً عربية كثيرة تعيش تعددية لسانية على غرار منطقة المغرب العربي وسوريا والعراق وغيرها. رغم أن العربية هي اللغة الوطنية واللسان الرسمي الوحيد لأغلبية هذه الدول.

يجب أن نذكر أيضا أن الحديث عن الأحادية اللسانية يتجاذبه جانبان أساسيان، جانب اجتماعي وهو الذي بيناه سلفا، لكن قاعدته فردية لأن وصف الأحادي اللسان هو وصف للفرد الذي يتحكم في لسان واحد، والأحادية اللسانية هي حالة يتفاعل فيها الفرد مع مجتمعه. بعبارة أخرى هي الحالة التي يوجد عليها الفرد في مجتمع لساني معين، بحيث يقتصر استعماله للسان واحد حينما يتعلق الأمر بحاجياته اليومية، وتواصله مع غيره من أبناء مجتمعه.

ما ينبغي الإشارة إليه هو أن بعض الدول تعيش أحادية لسانية عادية لكن بعضها الآخر يحرص على أن يبقى أحاديا رغم التعدد اللساني الموجود فيه. لكنه رغم ذلك فأغلبية دول العالم تحاول استثمار جميع الألسنة الموجودة في مجتمعاتها، حفاظا على وحدتها وتماسكها. والأكثر من ذلك تحرص على التفتح على ألسنة أخرى، وذلك لغايات سياسية اقتصادية وسياسية استراتيجية.

2 — بين الثنائية والازدواجية اللسانية: *bilinguisme et diglossie*

كثيرة هي البحوث التي عالجت ظاهرة الثنائية اللسانية، وكثيرون هم الباحثون الذين وجهوا اهتماماتهم صوبها، كل من منطلقه الفكري والمعرفي الخاص به، فتعددت تعريفاتها⁴، إلى درجة التباين بعض الأحيان. والتمتعن في هذه التعريفات يجد أن بعضها يركز على قدرة المتكلم، والبعض الآخر على تمظهرها الاجتماعي. وبناء على ذلك تبلور مظهران لهذه الثنائية مظهر فردي وآخر اجتماعي.

لقد كانت كل الاهتمامات منصبة بداية على الثنائية الفردية، وكان كل هم الباحثين محاولة فهم الآليات التي يتم بها تمكن الفرد من التحكم في نظامين لسانين مختلفين، لذلك سيكون البحث في هذا المجال شديد الصلة بميدان البسيكولسانيات. ولم يلتفت إلى العوامل الاجتماعية إلا نادرا، بل كان الموضوع الأساسي التركيز على مدى قدرة الفرد في اكتساب لسانين مختلفين وكيف يتم ذلك، والعوامل التي تسمح له بذلك.

وفي سياق الاهتمام بهذا النوع من الثنائية سيطفؤ إلى السطح مجموعة من الأسئلة التي ستؤرق القائلين بها، والتي منها: من هو الثنائي اللسان؟ هل هو الذي يعرفهما، كلاما، فهما، وكتابة بالقدر نفسه؟ أم أن المهم هو معرفته لأساسيات لسان آخر غير لسانه الأم ولو بدرجة أقل؟. وتبعاً لذلك ستتباين التعريفات المتعلقة بهذا النوع. والمهم في كل هذا أنها ستتراوح بين القدرة التامة في التحكم في لسان ثان إلى القدرة المحدودة لذلك.

والملاحظ أن هذا الطرح بصورة عامة سرعان ما سيبين محدوديته كون أن المختصين الآن لم يعودوا يهتمون بالبحث في الثنائية اللسانية الفردية، ومن هو الثنائي اللسان، بقدر ما أصبحوا يركزون على الطرق التي تمكن الفرد من التحكم في النظامين وتقديم توصيفات لذلك تبعاً لسنه، وظروفه ومحيطه وتفاعله مع غيره، مع التركيز على الجوانب التقنية المحضة.

ومن أهم النتائج التي خلص إليها اللسانيون، حصرهم لمجموعة من الخصائص التي يستوجب تجسدها في الفرد الثنائي اللسان والتي منها خاصة:

— أن يكون الفرد قادرا على أن ينتج بلسانه الأصل وكذلك بلسان آخر يختاره نمطيا، عبارات وجمل سليمة على المستويين النحوي والدلالي. " فأولئك الذين — بقدر متفاوت من النجاح يستطيعون استعمال صويتيات أخرى، ونحوا آخر، فهم ثنائيو اللسان" ⁵

— لا يشترط في الفرد أن يكون مستوى إتقانه للسانين واحدا، لأن ذلك صعب الإنجاز لعدم تمكن المتكلم من امتلاك نظامين من القواعد اللسانية متساويين إنجازا.

— يجب أن يكون اللسانان غير مترابطين في علاقتهما ولا تربطهما أي علاقة قرابة، كما هو الحال بين العربية الفصحى والعامية عندنا، بل يجب أن يكونا متباعدين ولا قرابة سلالية بينهما.

— الثنائية اللسانية حالة فردية وليست وضعية اجتماعية، إذ تنحصر في مجموعة قليلة من ولا تكون عامة في المجتمع. ⁶

إن قراءة متفحصة في البحوث التي عالجت هذه الظاهرة تجعلنا نقف على نتيجة مفادها أن الثنائية الفردية بصورة عامة تعني قدرة الفرد على الحديث والتعبير بلسان أجنبي إضافة إلى لسانه الأم، وهي صفة تطلق على الفرد القادر على التحكم في نظامين مختلفين في كافة مستوياتهما : الصوتية والتركيبية والدلالية. فالثنائية اللسانية إذن كانت في نظر الكثيرين من الباحثين خاصية لسانية لها علاقة وطيدة بقدرة الفرد التعبيرية، ومدى استعماله لنظامين لسانيين مختلفين أو متقاربين ، وهي بذلك ترتبط بالفرد، بل تجسد في حد ذاتها سلوكا فرديا.

إن الأمر الذي يجب أن نشير إليه في الأخير ونحن نتحدث عن هذه الظاهرة أن الفرد لا يكون ثنائي اللسان بمفرده، ولن يكون ذلك بمحض الصدفة، بل لأن رغبته في التواصل مع غيره هي التي تفرض عليه ذلك. كما أن الفرد عندما يريد تعلم لسان لن يكون أي لسان لكن ما تقتضيه حاجته، وما يقتضيه استعماله في ظرف أو بيئة ما. لذلك وبصورة عامة فإن اللسان الأكثر نفعا هو اللسان الذي نستعمله داخل المجموعة التي نحن في تواصل دائم معها.

لذلك نقول أن تعلم لسان ما ليس لكونه وسيلة اتصال فقط، بل لأنه لغايات اجتماعية واقتصادية، ومن ثمة فحينما يتكلم المجتمع على نطاق واسع لسانا ما فإن الظاهرة تصبح اجتماعية، وهي من ذلك ترمز إلى تحديد هوية مجموعة ما. انطلاقا من ذلك يصبح من الصعب الحديث عن الثنائية اللسانية الفردية دون ربطها بالوظيفة الاجتماعية للسان.

مع التحولات الاجتماعية والفكرية والسياسية والاقتصادية التي سيعرفها العالم في الفترة المعاصرة، سيصبح الاهتمام منصبا أكثر على الثنائية الاجتماعية وستبلور هذه القضية أكثر في سياق الدراسات السوسiolسانية، حيث سيهتم بها الباحثون اهتماما كبيرا، وستصبح من القضايا المحورية التي سيتعامل بها، انطلاقا من الأهمية التي ستولى للسياسات اللسانية والتخطيط اللساني، ودورها في ميدان السياسة والتعليم خاصة.

ولقد فرق العلماء المختصون وخاصة السوسiolسانيين منهم بين ثلاثة أنواع من الثنائيات اللسانية الاجتماعية، ثنائية أفقية، ثنائية عمودية، وثالثة متقابلة.

ثنائية أفقية يتعلق الأمر فيها بتعايش لسانين رسميين في مجتمع واحد، على غرار ما يحدث في منطقة الكيبك في كندا، حيث يتعايش اللسانان الفرنسي والإنجليزي، اللذان يمتلكان نفس المكانة في الحياة اليومية لسكان الكيبك.

أما الثنائية اللسانية العمودية، فيكون فيها التنافس بين لسان رسمي ونوع من اللهجات يمتلك قرابة وصلته به، والنماذج على ذلك كثيرة لعل أهمها : ما تعيشه سويسرا، حيث يعيش اللسان الألماني الذي هو اللسان الرسمي في هذا البلد، حالة من التنافس هي أقرب إلى الصراع مع اللهجة السويسرية التي لها صلة قرابة مع اللسان الألماني، والذي يتحدث بها أغلب سكان سويسرا.

الثنائية اللسانية المتقابلة والتي تتجسد حينما تستعمل مجموعة ما لسانا رسميا وآخر في شكل لهجة لعلها قرابة بينها وبين هذا اللسان الرسمي، مثل ما يحدث في إسبانيا، حين يستعمل سكان منطقة الباسك اللسان الإسباني واللهجة الباسكية التي لا صلة لها باللسان الرسمي أي الإسبانية.

أما مجموعة أخرى من الباحثين فقد صنفت الثنائية اللسانية الاجتماعية في تمظهرين :
تمظهر يجسد ثنائية دون تعايش اجتماعي وثنائية بدون بتعايش اجتماعي.

ومن الأمثلة التي لها علاقة بالتصنيف الأول، استعمال مجموعة واحدة للسانين، أحدهما اللسان الأم والآخر لسان يعتمد لحاجات التواصل التجاري والاقتصادي مثلا. فالأمر لا يتعلق هنا بتعايش لوجود مجموعة واحدة تستعمل نظامين متقاربين عموما. أما الحالة الثانية فهي التي تستعمل فيها مجموعتان مختلفتان في مجتمع واحد لسانين، أحدهما اللسان الأم لهذه

المجموعة، والآخر لسان للتواصل به مع المجموعة الأخرى التي يعيش معها، وهي بذلك ثنائية لسانية بتعايش اجتماعي.

الملاحظ أن مصطلح الثنائية يلتبس مع مصطلح آخر في الثقافة الغربية اللسانية، ألا وهو مصطلح الازدواجية، فكل منهما يستعمل مكان الآخر إلا أن البعض يجذب استعمال مصطلح الازدواجية⁷ مكان ما يصطلح عليه بالديغلوسيا⁸ diglossie. وذلك ما سنفعله نحن أيضا.

ترتبط إذن حالات الازدواجية ارتباطا وثيقا بالحالات التي فيها ثنائية لسانية أيضا، ثم إن نظرة متفحصة في بحوث بعض المختصين حين دراسة هذه الظاهرة , تجعلنا نستشف أنها تعلقت إما بعامل الصراع أو التعايش بين لسانين.

من الذين ربطوا هذه القضية بالصراع العالم بسيكاري Psichari الذي تحدث التي عاشتها اليونان لسانيا من خلال صراع حاد بين لسان الكتاريفوسا katarivoska وهو لسان المثقفين والمتأديبين والعلماء والطبقة الراقية ولسان الديموتيكي dimoteki وهو لسان الأغلبية الشعبية التي تتواصل به وتتعامل به في يومياتها. إن الصراع الذي ظهر سببه ترقية السلطات اليونانية اللسان الأول وترسيمه ودعمه على حساب اللسان الثاني الأمر الذي أحدث اختلالا كانت له ردة فعل حادة من قبل الفئات الشعبية اليونانية.

مع فرغيسون Fergusson الأمريكي سيأخذ هذا المصطلح مفهوما آخر يكون أقرب منه إلى التعايش. لذلك سيري أن الازدواجية تكون في الحالة التي تكون فيها ثنائية لسانية، بحيث يستعمل في مجتمع الواحد لسان لكن بتمظهرين: تمظهر راق، يستعمل للحياة

الفكرية والعلمية وتظهر عاد يكون منحصر الاستعمال في الحياة اليومية " وينطلق لإبراز ذلك من أربع حالات اعتبرها نموذجية (سويسرا الألمانية، مصر، هايتي، واليونان) وهي حالات تشهد علاقات مستقرة عادية بين تظهري اللسان الواحد " ⁹ مثل استعمال الفصحى في البلدان العربية في الحياة الفكرية الثقافية والرسمية، واستعمال العامية في التعاملات اليومية، لكن ذلك يتم في تعايش تام ودون صراع.

إذا كان العالمان السابقان قد انطلقا في تشريحيهما للازدواجية من اللسان الواحد المتمظهر بتمظهرين أحدهما راق والأخر بسيط، فإن عالما آخر وهو العالم فيشمان Fishman، سيتحدث عن الازدواجية، في حالات ثنائية يكون فيها اللسانان مختلفين ولا تربطهما أي قرابة، "لكن دورهما يكون متكاملًا بحيث يقوم كل لسان بدوره الخاص به، على غرار ما يحدث في البراغواي حيث يتكامل اللسان الأصلي الغراني مع اللسان الإسباني". ¹⁰

إن فيشمان لم يتوقف عند هذا الحد بل حاول جميع الحالات التي ترتبط فيها الازدواجية بالثنائية اللسانية، فأحصى أربع حالات أساسية : أولها ثنائية مع ازدواجية، ثانياها ثنائية بدون ازدواجية وثالثها ازدواجية بدون ثنائية، ورابعها عدم وجود ثنائية أو ازدواجية. إذا كنا قد ربطنا الازدواجية التي يحدث فيها الصراع بين تظهريين للسان واحد، نقول أن أغلب حالات الصراع إنما تحدث في حالات ثنائية لسانية مختلفة، حين يرسم لسان ويفرض أو يهشم آخر وذلك لغايات سياسية محضة.

3- التعدد اللساني: plurilinguisme - multilinguisme

التعدد اللغوي، والتفرع اللغوي، التنوع اللغوي كلها مصطلحات استعملت من قبل الباحثين للدلالة على التعدد اللساني. والتعدد اللساني معناه استعمال الفرد الواحد لأكثر من لسان، أو تداول أكثر من لسان واحد في المجتمع الواحد. بصورة أخرى هي حالة تتمظهر على مستوى الفرد كما تتمظهر على مستوى المجتمع. "وهو يصدق على الوضعية اللسانية المتميزة بتعايش لغات وطنية متباينة في بلد واحد، إما على سبيل التساوي إذا كانت جميعها لغات عالمة كالألمانية والفرنسية والألمانية في الجمهورية الفدرالية السويسرية، وإما على سبيل التفاضل إذا تواجدت لغات عالمة كالعربية بجانب لغات عامية.."¹¹

كما ذكرنا سالفاً فإن أغلب دول العالم تعيش حالة تعدد لساني، والواقع أنه حتى في حال استعمال لسانيين أي في حالة ثنائية لسانية، فإن المجتمع يعيش تعددية لسانية، لذلك نجد أن أغلب الباحثين إنما يعالجون حتى ظاهرة الازدواجية والثنائية في سياق حديثهم عن التعددية.

والملفت للانتباه أن ظاهرة التعدد اللساني داخل مختلف المجتمعات ترتبط بأسباب عامة وأخرى خاصة بكل مجتمع على حدة، انطلاقاً من أن لكل مجتمع ظروفه التاريخية والسياسية التي مر بها، والتي كانت سبباً في تبلور هذه التعددية عنده، هذا إذا سلمنا أن كل مجتمع بداية ما يعيش حالة أحادية وعلى كافة المستويات، ثم نتيجة لظاهري التأثير والتأثير يتجسد التعدد.

من المعروف أن التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والفكرية، والدينية والتكنولوجية، والصراعات المسلحة والحروب، هي الأسباب الأساسية في حدوث هذا التعدد اللساني.

المتصفح لتاريخ البشرية يجد أنها مرت بمراحل متعددة ساهمت في تشكل أمم واندحار أخرى، تآلف مجموعات أخرى، وتلك عوامل تشجع جميعها في ظهور تعدد لساني. فكل حضارة كانت تظهر كانت تحاول صهر الأقوام الأخرى وإذابتهم فيها، سواء أعلق الأمر بالمصريين أو اليونانيين أو الفرس أو الرومانيين أو غيرهم. وفي ذلك نواة أولى لظهور تعددية لسانية لأن الحقائق التاريخية تفيد بما لا يدع مجالا للشك أن اللسان كان هو الحامل والقاعدة الأساسية لهذه الحضارات، وكان لزاما على الأمم المستعبدة استعمال لسان هذه الحضارات، ولو ظاهريا.

إن الحملات العسكرية والاستعمارية¹² أيضا كانت عاملا أساسيا في ظهور هذه التعددية، حملات قديمة كانت أم حديثة، والدليل الواضح ما تعيشه دول إفريقيا وأمريكا اللاتينية، وآسيا نتيجة لذلك. فآلسنة المستعمر لا زالت متغلغلة حتى الآن في الدول التي عانت منه، وشكلت رواسب فكرية وثقافية عميقة وشديدة الصلة بها، صار من الصعب محوها¹³ أو تجاوزها.

يلعب العامل الديني دورا رياديا أيضا في عملية التعدد اللساني والدليل على ذلك ما عاشته البشرية إبان العصور المسيحية الأولى، وما عاشته بعدها بفضل النفوذ الذي أخذه

اللسان العربي بفضل القرآن الكريم، وامتزاج الأجناس والأمم المختلفة في هذا الدين الجديد بألسنتهم المختلفة وتأثرهم ببعضهم البعض.

إضافة إلى ذلك كله ونتيجة للتحويلات الاقتصادية والتكنولوجية التي يشهدها العالم المعاصر فرضت تعددي لسانية، انطلاقاً من أنه صار لزاماً على كل المجتمعات أن تتكيف ولو نسبياً مع أوضاع جديدة وتتأقلم مع واقع فرض عليها التفتح على ألسنة صارت ضرورية في التواصل الاستراتيجي في الوقت الحالي، على غرار الإسبانية والإنجليزية والبرتغالية وغيرها من الألسنة النافذة.

كذلك ساهمت موجات الهجرة المتواصلة على مدى العصر الحديث والمعاصر في تبلور تعددية لسانية، داخل المجتمعات المهاجرة إليها، فما من بلد أوروبي أو أمريكي إلا ووجدت فيه عددا لا يستهان به من المهاجرين الذين يشكلون تجمعات لسانية، يصبح من الضروري أن تتأقلم مع واقع لساني جديد، من أمثلة ذلك العائلات المغاربية في أوروبا وخصوصاً فرنسا، والأسويون في أمريكا، وكذلك هنود أمريكا الجنوبية، الأتراك في ألمانيا وغيرها من الحالات الكثيرة.

وإذا كانت هذه هجرات طوعية فإن هناك هجرات قسرية مفروضة، على غرار آلاف اللاجئين الموجودين في كافة بقاع العالم، والذين نتيجة احتكاكهم بالمجتمعات التي يلجأون إليها ستأسس تعددية لسانية , والأمثلة التي يمكن سوقها في هذا المجال كثيرة.

إننا ونحن نتحدث عن التعدد يجب أن نضع نصب أعيننا أن الألسنة هذه ليست على درجة واحدها وذلك تبعاً لبنيتها ونظامها، واتساعها الاجتماعي، وقدرة تأثيرها وهكذا.

ومن هذا المنطلق سيصنف بعض المختصين الألسنة إلى ثلاثة أصناف صنفين : ألسنة كبرى وألسنة ناشئة وأخرى هجينة.

من الصنف الأول ما يصطلح عليه البعض بالألسنة العاملة، وهي ألسنة كانت حاملة لحضارات، وحاملة لقسم روحية دينية، أو كانت حاملة للمعارف الإنسانية عرفت امتدادا عبر التاريخ، ورقعة الحديث بها متسعة بصورة تجعل مجتمعات كثيرة تتحدث بها " فتكون من جهة وظيفتها، واصفة لبيئتها الحضارية وناقلة لأشكال المعارف الدينية والفكرية المتشعبة إلى الفنية والعلمية بقسميها النظرية والعملية وناشرة لإحدى الثقافات المؤسسة عقديا والرائجة بين مجتمع أو أكثر محدد جغرافيا."¹⁴

إضافة إلى ذلك هي ألسنة تعرف بتجانسا في نظامها البنوي، على كافة المستويات، تتحدث بها مجموعة كبيرة من الأفراد، ويحترمون معاييرها الصرفية والنحوية "وهي تختص بخصائص بنوية مطابقة لمميزات اجتماعية. فهي من حيث البنية تمتاز، فضلا عن إمكان إدراجها في نمط لغوي معين باكتمال نسقها والاستعمال الواسع لإمكاناته التوليدية"¹⁵. ومن أمثلة هذا الصنف اللسان العربي واللاتيني والإغريقي، وغيره من الألسنة الكبرى الحالية.

أما الصنف الثاني فهي ألسنة ناشئة، تنشأ في معظمها عن الاحتكاك بألسنة أخرى، تطبعها الشفوية، لا تجسد كتابة، بنيتها مهلهلة، لا معايير تضبط مستوياتها، تغلب عليها العفوية والارتجال، والملاحظ أن أغلب العاميات شديد الصلة بهذا الصنف. "فهي تتميز نسقيا بصعوبة إدراجها في نسق لغوي، وبوجود خانات فارغة في تكوينها الصرفي

والتركيبي..وبفقر معجمها المرتبط مداخله بالحرف اليدوية والمبادلات الضرورية للحياة الاجتماعية البسيطة..."¹⁶. ومن أنواع هذا الصنف لهجات بعض القبائل التي اندحر بعضها، وما يزال بعضها قائما لكن في نطاق ضيق جدا.

الصنف الثالث ونشأ نتيجة موجات الاستعمار وحملات الرق، والتجارة، يجسد هيمنة من نوع خاص واحتكاك نتيجته هذه الألسنة، على غرار ألسنة الكريول والبيدجين والسابير وغيرها. التي جاءت نتيجة التأثير بألسنة كبرى مثل الفرنسية والعربية والإنجليزية والإسبانية وغيرها.

إن الحديث عن هذه التصنيفات يجرنا إلى حديث أساسي آخر وهو أنه لا بد من الاعتراف بأن ألسنة العالم ليست متساوية. رغم أن العلماء اهتموا بدراسة وتحليل أغليبتها. وتعاملوا مع جميعها بطريقة علمية موضوعية تحاول الوقوف على خصائص كل لسان على حدة وفي علاقته مع الألسنة الأخرى. فلا فرق لديهم بين أكثر الألسنة انتشارا والألسنة التي توشك على الاندثار، أو حتى بين الألسنة التي استخدمت في كتابة آلاف المؤلفات والألسنة غير المكتوبة على الإطلاق. فكل الألسنة تستحق الدراسة والتحليل. لكن أن نسوي بين ألسنة كبرى وهجينة مثلا فهذا لا ينسجم مع منطق العقل.

إن ما يعيشه العالم، وما عاشه سابقا، يؤكد ما نقول، بالنظر إلى أن الألسنة صارت تحظى بأهمية استراتيجية ؛ وذلك تبعا لبعض الموصفات التي تتحقق فيها، وتبعا لوظائفها، والدليل الواضح على ذلك مكانة ألسنة مثل الإنجليزية والإسبانية والفرنسية في العالم ولذلك "لا يمكن على الإطلاق تصور وجود خمسة آلاف لغة تحظى بالقيمة نفسها والأهمية

التجارية والاستخدامات، بل تنتظر المصير ذاته، فإننا نعتقد في وجود ما يسمى ببورصة اللغات¹⁷ التي تشهد تطور قيمة اللغات وتغيرها وما إلى ذلك من أمور تشبه ما تتعرض له الأسهم التجارية في بورصة الأوراق المالية.¹⁸

ثم إن الحقيقة التي لا مناص منها هو أن ترسيم الألسنة، واختيارها للتعليم وتفعيلها في سياسات لسانية لمجتمع ما، إنما يرتبط بقيمتها هذه التي نتحدث عنها. فاختيار الإنجليزية لسانا أجنبية أو ثانيا لتعليمه وتعلمه، شديد الصلة بما نقول، والتركيز على العربية أيضا، والاختيار النفعي البراغماتي قد يتجاوز في كثير من الحالات حتى الاختيار المبني على الهوية أو ذلك المبني على جوانب إيديولوجية محضة.

إن ظاهرة الانفتاح اللساني الذي تشهده المرحلة الحالية شديد الصلة بهذا المجال أيضا، خاصة في ضوء التطور الرهيب لوسائل الاتصال، مقولة العالم قرية صغيرة أصبحت تتأكد يوما بعد يوما، وأصبحت الألسنة سلاحا ضروريا للتأقلم مع هذا الوضع الجديد، ومسايرته، لأنها الطريقة الوحيدة التي صارت تمن للفرد اندماجا وتكيفاً مع هذه التحولات السريعة.

بقي أن نشير أن التصنيف الذي وضعه المختصون على الثنائية، يسري أيضا على التعددية اللسانية. خاصة فيما يتعلق بالتعايش أو الصراع. لكن الأمر الملفت للاهتمام هو أن السياسات اللسانية والتخطيط اللساني يصبح أكثر من ضروري في الحالات التي يزداد فيها العدد عن ثلاثة ألسنة، خاصة عندما يتعلق الأمر بترسيم لسان ما، أو ألسنة في هذه المجتمعات.

يحتضن العالم حالات تعددية مختلفة¹⁹، تستوجب كل منها معالجة معينة، لذلك نجد أنه مع السنوات الأخيرة، أصبح اللسان يكتسي أهمية أكثر من أي وقت مضى، ذلك لأن القضايا السياسية المتعلقة بالأقليات، وتحولها إلى قضايا استراتيجية. وأصبح العالم يعيش انقسامات، يكون اللسان أحد أسبابها الرئيسة باعتبار تحسيده لهوية الشعوب والمجموعة ووجودها، وتوقعها في هذا العالم. لذلك كله يصبح اختبار لسان رسمي في مجتمع متعدد الألسنة بالأمر الذي يجب الاحتياط له كثيرا.

الهوامش :

